Al-Quntar Journal for Humanitarian and Applied Studies
Philosophy and Foresight Science Series

9/30/2024

مؤرخان من قسنطينة في القرن التاسع عشر

محمد البابوري و مصطفى بن جلول

الدكتورفارس كعوان

جامعة سطيف 2

تاريخ الارسال 2024/8/19 تاريخ القبول 2024/9/2 تاريخ النشر 2024/9/30

تسلط هذه الدراسة الضوء على شخصيتين بارزتين في قسنطينة خلال القرن التاسع عشر، وهما محمد البابوري ومصطفى بن جلول، اللذان تركا إسهامات ثقافية وتاريخية هامة رغم ندرة الدراسات عنهما. محمد البابوري، الذي وُصف بأنه شخصية متعلمة، كان من الكتاب الإداريين في عهد الحاج أحمد باي، وقد ساهم في كتابة تاريخ قسنطينة في مخطوط كان له قيمة تاريخية . أما مصطفى بن جلول، فهو مؤرخ وقاضي حنفي من أسرة علمية قديمة، وقد ترك آثارًا مهمة في التاريخ المحلي من خلال كتاباته، بما في ذلك تاريخ قسنطينة، بالإضافة إلى سجلات دقيقة حول الضرائب والإدارة العثمانية، على الرغم من الضياع المحتمل لبعض أعمالهم، إلا أن إسهاماتهم تبقى محورية لفهم التاريخ الثقافي والإداري للمدينة خلال العهد العثماني والاستعمار الفرنسي.

الكلمات المفتاحية: محمد البابوري، مصطفى بن جلول، قسنطينة، العهد العثماني، التاريخ الثقافي، الاستعمار الفرنسي.

Two Historians from Constantine in the 19th Century: Muhammad al-Babouri and Mustafa bin Jalloul

Dr. Fares Kaouane
Setif 2 University

Abstract : This study highlights two prominent figures in Constantine during the 19th century: Muhammad al-Babouri and Mustafa bin Jalloul, who made significant cultural and historical contributions despite the scarcity of studies on them. Muhammad al-Babouri, described as an educated figure, was one of the administrative scribes during the reign of Hajj Ahmad Bey. He contributed to writing the history of Constantine in a manuscript that holds historical value, despite criticisms of his style. On the other hand, Mustafa bin Jalloul was a historian and Hanafi judge from an old scholarly family. He left important marks on local history through his writings, including a history of Constantine and detailed records on taxes and Ottoman administration. Although some of their works may have been lost, their contributions remain crucial for understanding the cultural and administrative history of the city during the Ottoman and French colonial periods.

Keywords: Muhammad al-Babouri, Mustafa bin Jalloul, Constantine, Ottoman period, cultural history, French colonization.

1. المقدمة

لا يزال الكشف عن إسهامات النُّخَب في الحياة العامة وخصوصا منها الجانب الثقافي في العهد الاستعماري بعيدا عن التناول والدراسة، ولم يتم سوى إعداد محاولات محتشمة لدراسة جهود بعض الأفراد في نطاق منعزل، وهذا ما جعلنا نحاول التركيز في هذه الدراسة على شخصيتين من قسنطينة لم تحظيا بدراسة خاصة هما البابوري وبن جلول، وهما من الشخصيات التي تصنف ضمن النُّخَب ذوي الثقافة التقليدية، التي وبرغم المساهمة الهامة التي قدماها في مجال التأليف التاريخي إلا أنهما بقيتا بعيدا عن المعالجة التحليلية .

2. البابوري: الشخصية والمسار

لا نملك عن البابوري غير معلومات قليلة ومتفرقة بإمكاننا من خلالها إعداد ترجمة مقتضبة له، فهو محمد بن أحمد البابوري[1] الذي وصفه (Vayssettes) بأنه" شخصية متعلمة جدا، وإنه من أهل قسنطينة، و بسبب كبر سنه فهو شاهد عيان معاصر للأحداث التي كتب عنها "[2] والعبارة الأخيرة توحي لنا بأن البابوري قد ولد في الفترة الأخيرة من العهد العثماني، أي في عهد صالح باي " 1772 – 1791 " ، كما أن عبارة شخصية متعلمة تعني أن البابوري قد نال نصيبا هاما من العلم على مشايخ العلم في قسنطينة في تلك الفترة، ولكن رغم هذا فإننا نجهل الكثير عن هذه الشخصية، وفي هذا الشأن يقول سعد الله :" ورغم ذلك فإنه لم يرد له ذكر إلا نادرا في الوثائق المعاصرة ."[3]

وجاء ذكر البابوري كناسخ لأحد العقود الإدارية في أواسط شهر محرم سنة 1247 هـ/ 1831 م أي في عهد الحاج أحمد باي، مما يعني تبوئه لمنصب كاتب إداري أو خوجة كما كان يعرف هذا المنصب.[4]

و يؤكد ذلك ما ورد في مخطوط لابن المبارك اعتمد عليه (Cherbonneau)[5] قال فيه إن البابوري كان يشغل منصب خوجة، لدى قائد الدار محمد بن البجاوي، الذي قتل في الدفاع عن قسنطينة سنة 1837،كما ذكر (Cherbonneau) أن محمد البابوري كان الوسيط بينه وبين ابن المبارك من أجل الحصول على مخطوط الدرة الثمينة[6]، وكان البابوري حيا سنة 1858 كما يستنتج من كلام (Vayssettes)، وكان مُسنًّا.

ذكر (Vayssettes) أن (Cherbonneau)- الذي حل بقسنطينة بعد احتلالها عند إنشاء كرسي اللغة العربية بها - هو الذي كلّف البابوري سنة 1848 بالكتابة عن تاريخ قسنطينة.

ووصَف (Vayssettes) المخطوط بأنه في حوالي الثلاثين ورقة، وإنه لم يطبع وإنما تناقله النُّسّاخ فوقعت نسخة منه في يد (Vayssettes) فقام بترجمتها وإدماجها في كتابه:" تاريخ قسنطينة تحت السيطرة التركية"[7].

و جاءت ترجمة (Vayssettes) للمخطوط في ست وخمسين صفحة، وسماه:" صفحة من تاريخ حكم أواخر بايات قسنطينة من سنة 1229 هـ إلى سنة 1243 هـ" أي من عهد محمد شاكر باي سنة 1229 هـ/ 1814 م إلى سنة 1243 هـ/ 1827

م حين تولى الحاج أحمد باي، ولا تزال هذه الترجمة المخطوطة في أرشيف مقاطعة روديز مسقط رأس الكاتب الفرنسي[8] وهذا يعني أن البابوري لم يضع عنوانا لكتابه هذا وإلا لكان أشار إليه (Cherbonneau) أو (Vayssettes) أو بيربروجر الذين استفادوا منه.

وصف (Vayssettes) أسلوب المخطوط بـ" السيء والممل " لأنه يورد في الصفحات الأولى – التي اعتبرها غير ذات قيمة كبيرة - بعض كرامات أولياء قسنطينة مع تراجم بعض العلماء والمرابطين، كالمرابط الشهير سيدي أحمد الزواوي، والكتاب يعوزه- حسب (Vayssettes)- الترتيب الكرونولوجي للأحداث، كما إنه لم يتناول سيرة كل بايات قسنطينة.[9]

ورغم كل هذا فإن كتاب البابوري يبدو ذا قيمة تاريخية هامة، فقد استفاد منه (Cherbonneau) الذي كان مهتما بتاريخ قسنطينة، ولكنه لم ينشره، واقتبس منه فقط بعض المعلومات التاريخية في بحوثه، أما (Vayssettes) فقد لجأ إلى ترجمته كاملا، وإدماجه في بحثه السابق عن قسنطينة كما فعل مع كتاب العنتري، كما استفاد منه بيربروجر حين كان يجمع نصوصا حول حملة أوريلي على الجزائر سنة 1775 ونشر نصا منه في المجلة الإفريقية.

ومن خلال نقول (Vayssettes) من هذا المخطوط -والتي للأسف لا يشير إليها دائما- أمكننا أن نعرف أن البابوري اهتم بسرد بعض التفاصيل التي لم يذكرها معاصروه كالعنتري وابن المبارك، ورغم أن مخطوط البابوري تناول نظريا - حسبما يستفاد من (Vayssettes)- الفترة الممتدة فقط بين 1814 و 1827 إلا أنه تناول أحداثا أخرى تسبق هذه الفترة في سياق حديثه عن المرابطين الذين ذكرهم في كتابه.

وذكر بيربروجي الذي استفاد من مخطوط البابوري -وقد كانت نسخة منه بالمكتبة العمومية بالجزائر- إن هذا الأخير به تراجم لبعض المرابطين وهم: أحمد الزواوي، ومحمد بن بودراهم، والشيخ محمد بن عياد، وسيدي عبيد، والشيخ الحسناوي، كما أن به فصلا عن حكم أحمد شاوش الملقب بـ" باي راسو" [10] ولعله هو الفصل الذي قام بنشره (Cherbonneau) سنة 1852 وقال إنه فصل من تاريخ غير منشور عن قسنطينة.[11]

والبايات الذين عاصرهم البابوري هم : محمد شاكر باي " 1814 – 1818 " وقارة مصطفى " من يناير إلى فبراير 1818 " وأحمد باي المملوك " من فبراير إلى نهاية أغسطس 1818 " و محمد باي الميلي " من نهاية أغسطس 1818 إلى يوليو 1819 " وإبراهيم باي الغربي " من يوليو 1819 إلى أغسطس 1820 " وأحمد باي المملوك للمرة الثانية " من أغسطس 1820 إلى يوليو 1822 " و إبراهيم باي الكريتلي " من يوليو 1822 إلى ديسمبر 1822 " و محمد باي مناماني " من ديسمبر 1822 إلى أغسطس 1826 " و الحاج أحمد باي " من أغسطس 1826 إلى 13 أكتوبر 1837 " .

نقل بيربروجي ما كتبه البابوري عن الزواوي، وقال إن البابوري اعتمد على خدم الشيخ الزواوي، وهم من رجال أولاد بن رحمون، ومن خلال ما ذكره عن الشيخ الزواوي يتبين لنا أنه لم يخرج عن روح عصره، في الإيمان بالخوارق والكرامات فهو يقول مثلا : " من بين كرامات المرابط سيدي الزواوي الذي يُزار ضريحه، ويتوافد عليه أهل قسنطينة، يمكن أن نذكر ما قام

به حين هجم النصارى على الجزائر [يقصد حملة أوريلي سنة 1775] فقد كان الشيخ يملك فرسا رائعة تدعى الرقطاء اختفت في إحدى الليالي من اسطبله، فأمضى خدمه كامل الليل في البحث عنها، وفي اليوم الموالي عادوا إلى منزل سيدهم خجلين من فشلهم في العثور عليها، وكانوا ينوون عدم إخبار الشيخ باختفائها، لكنهم ذهلوا حين رأوا الفرس في مكانها بالإسطبل ..... "[12]

و أورد (Vayssettes) نصا كاملا من مخطوط البابوري حول علاقة الشيخ أحمد الزاوي بحسونة بن حسين باي "هذا الأخير الذي حكم المقاطعة من 1792 إلى 1795"، وعزا فيه البابوري تنبؤ الشيخ الزواوي بنهاية مأساوية لحسونة هذا، بعدما حذره من لبس البرنوس الأسود، كما نبّهه إلى أنه في حال توجه إلى منطقة سيدي مبروك فعليه كما قال" أن يكون قلبه نقيا خاليا من الأفعال الخبيثة" [13].

كما نقل (Vayssettes) ما كتبه البابوري عن الشيخ الحسناوي[14]واستفاد مما كتبه البابوري عن الشيخ محمد بن عياد في رواية سماها :" حنينة عذراء قسنطينة ." [15]

وهكذا فقد توزعت نصوص الكتاب، وتناقلها الكتاب الفرنسيون دون أن ينشروا النسخة العربية له، التي من الأرجح أنها ضاعت، كما ضاعت الكثير من مؤلفات ذلك العصر.

3. المؤرخ القاضي مصطفى بن جلول ومخطوطه حول تاريخ قسنطينة :

كتب الضابط الفرنسي شارل فيرو عند وفاة هذا الشيخ مع الشيخ المكي البوطالبي يقول :" إن أحسن رثاء يمكن أن يوجه لهذين العالمين اللذين توفيا تقريبا في نفس الفترة، هو الإشارة إلى المثل الذي صار يضرب في مدارس قسنطينة بعد وفاتهما وهو " إن العلم عند المسلمين[يقصد أهالي الجزائر] انطفأ مع سي مصطفى بن جلول وسي المكي البوطالبي" [16] فمن يكون هذا الشيخ الذي استحق هذه المكانة ؟

ينحدر مصطفى بن جلول من عائلة بن عبد الجليل العريقة بقسنطينة، التي عرفت بابن جلول، وهي عائلة علمية قديمة بقسنطينة، قال عنها نور الدين عبد القادر " وأسرة بن عبد الجليل وعرفت بابن جلول واستمر فيها العلم زمانا مديدا"[17].

ولكن الأسرة لم يظهر دورها جليا إلا منذ القرن الثامن عشر، حتى أننا لا نجد لأحد من أفرادها ذكرا في منشور الهداية المُؤلَّف في القرن السابع عشر، وتعود أصول هذه الأسرة -حسب رواية الشيخ مصطفى بن جلول التي أفاد بها (Cherbonneau)- إلى المغرب الأقصى[18]، وكان الجد الأول قد استقر بقسنطينة في نهاية القرن 9 هـ/ 15 م ، ويُعدّ عباس بن علي بن جلول أول أفراد الأسرة الذين دخلوا في خدمة المخزن التركي، فقد شغل منصبا هاما هو منصب الباش كاتب لدى الباي حسين بوكمية.[19]

و اشتهر من عائلة بن جلول عدد من العلماء، منهم الشيخ شعبان بن جلول الذي وصفه الورثلاني في رحلته بقوله :" العالم على الإطلاق والأديب بالاتفاق سيدي شعبان بن جلول قاضي الحنفية" [20] الذي تتلمذ على المفتي محمد بن علي الجعفري البوني القسنطيني، و أجازه إجازة عامة بعد سنة 1139 هـ/ 1727م إثر القراءة عليه سنين عديدة.

كما ذكر الكتب التي قرأها عليه كالألفية ومختصر خليل وألفية العراقي، والمحلى في الأصول، وصغرى السنوسي في الفلك، وصحيح البخاري.[21]

وتوفي شعبان بن جلول بعد أن عاش مائة سنة[22] شغل خلال 67 سنة منها منصب القاضي الحنفي، ورقي نتيجة خصاله التي صار يضرب بها المثل في قسنطينة[23] كما برز اسم المرابط المسعود بن جلول الذي كانت له إدارة شؤون زاوية عائلته سنة 1833 .[24]

وأما الشيخ مصطفى بن جلول فهو هو مصطفى بن محمد[25] بن عباس بن علي بن عبد الجليل المعروف بابن جلول[26] فقد ولد بقسنطينة سنة 1768 [27] وتلقى تعليمه ببلده في زاوية العائلة التي تعرف بزاوية الزواوي[28]، ولعلّه درس على عمه الفقيه أبي العباس أحمد بن عباس بن علي بن عبد الجليل الذي توفي بقسنطينة في 21 صفر سنة 1201 هـ/ 1786 م "[29] كما يكون قد تلقى العلم على جملة من مشايخ العلم بقسنطينة.

و تولى مصطفى بن جلول منصب باش كاتب لدى الحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة[30] وفي عهد الاحتلال الفرنسي تولى القضاء الحنفي بالمدينة سنة 1265 هـ/ 1848 م وظل فيه إلى غاية سنة 1273 هـ/ 1856 م،[31] وفي 19 نوفمبر 1849 م عُيّن إماما بزاوية رضوان براتب قدره 200 فرنك، وفي 01 يناير 1850 م تم تجديد إقراره كمدرس بجامع سيدي لخضر براتب قدره 200 فرنك، وهي وظيفة كان يمارسها شرفيا مع وظيفته كقاضي[32].

شارك مصطفى بن جلول في عدد من أحداث عصره، فقد وجدناه يقوم بتحرير رسالة إلى السلطات الفرنسية هي عبارة عن شكوى بعثها أعيان قسنطينة ضد حمودة بن الشيخ الفكون الذي عينته الإدارة الفرنسية حاكما على المدينة.[33]

كما وجدناه من بين الموقّعين على رسالة تهنئة بعثها أعيان قسنطينة سنة 1856 م في الذكرى الأولى لتولي نابوليون الثالث منصب إمبراطور فرنسا [34]، و توفي الشيخ مصطفى بن جلول في خريف عام 1864 م عن عمر يناهز 96 سنة، ودفن بقسنطينة بمقبرة عائلته.[35]

و ترك الشيخ بن جلول عددا من الآثار نعرف منها تقريضه لرسالة " تحفة الناظرين في إبطال القول بنقض الحكم بصحة الوقف بعد موت الواقفين" لمصطفى بن عبد الرحمن باش تارزي المتوفى سنة 1252 هـ/1832 م[36] وكتاب عن تاريخ قسنطينة.

كان الشيخ مصطفى مهتما بالتاريخ، حيث ذكر الكاتب الفرنسي (Vayssettes) في كتابه "تاريخ قسنطينة تحت السيطرة التركية" أنه استفاد من تأليف تاريخي حول قسنطينة ألفه الشيخ مصطفى بن جلول، و اعتمد عليه (Vayssettes) في كتابه المذكور.[37]

و حصل فيرو من السيد حسن بن جلول الذي كان يشغل منصب خوجة في إدارة الشؤون العربية بقسنطينة أوائل الاحتلال على تقييد تاريخي به وصف للحملة الفرنسية على الجزائر بقلم الشيخ مصطفى بن جلول، و قام فيرو بترجمة النص العربي إلى الفرنسية، ونشره في مجلة الجمعية الأثرية والتاريخية لمنطقة قسنطينة سنة 1865 بعنوان : "احتلال الجزائر سنة 1830 حسب شهادة كاتب مسلم" وذكر فيرو أن هذه الوثيقة منتخبة من أوراق محفوظة لدى عائلة بن جلول.

وهكذا يبدو أن تأليف بن جلول الذي يعد مفقودا اليوم ذا قيمة تاريخية كبيرة، بحكم أنه اعتمد على أوراق العائلة التي اشتغل جل أفرادها في الإدارة[38] والذين كتبوا ملاحظات حول الأحداث التي عرفها الإقليم في مختلف العصور وهذه الملاحظات قام بجمعها وتنظيمها سي حسن بن جلول .

و ذكر (Cherbonneau) أن مصطفى بن جلول قد أرسل له وثيقة تتحدث عن علاقة جده عباس مع الباي حسين بوكمية، وكيف حوّل الباي جامع سوق الغزل الذي بناه عباس بن جلول سنة 1730 إلى اسمه الخاص، جاء فيها ما يلي :" إن جدي السيد عباس بن علي جلول أصيل مدينة فاس بالمغرب قد تخلى عن المذهب المالكي واعتنق مذهب أبي حنيفة وشغل وظيفة باش كاتب لدى باي قسنطينة حسين بوكمية ، وبما أنه كان يتمتع بثروة كبيرة فقد كان يعلم أيضا كيف ينفقها في عمل شريف، فقرّر سنة 1143 هـ/ 1730 أن يبني على نفقته الخاصة مسجدا بحي سوق الغزل، ولتخليد ذكرى هذا العمل الخيري وضع عباس بن علي جلول أعلى الباب الرئيسي نقيشة بخط مشرقي ذو أناقة نادرة".

ويضيف مصطفى بن جلول أن جده ولتثبيت هذا العمل الجدير بالتقدير فقد استدعى علماء قسنطينة لتوثيق عقد بهذا العمل تم حفظه في وثائق العائلة ، لكن البايكما ذكر الشيخ مصطفى " لم يتوان عن إظهار حسده لشهرة باش كاتبه فاستدعاه إليه وقال له : يا عباس لقد عشنا إخوة في الحياة الدنيا فلنكن كذلك في الحياة الأخرى، ومن اللائق أن نتقاسم النفقة حتى أحصل على حصتي من البركة التي خصك بها الله " وهكذا تنازل عباس بن جلول عن تدوين اسمه في مدخل هذا المسجد لصالح الباي بوكمية.[39]

وذكر (Vayssettes) الذي استفاد أيضا من مخطوطة الشيخ مصطفى بن جلول أن هذا الأخير قد كتب عن التنظيم الإداري للبايلك في العهد العثماني وأسهب في ذكر الدنوش الذي كان يتوجب على بايات قسنطينة دفعه مرة كل ثلاث سنوات إلى باشا الجزائر.

و قال (Vayssettes):" سنقوم بإعطاء التكوين الكامل للدنوش كما وجدناه في مخطوطة الشيخ مصطفى بن جلول الذي يتوجب أن يكون على دراية وخبرة كبيرتين في هذا المجال، فوظائف الباش كاتب يمكن القول أنها كانت وراثية في عائلته ".

وذكر بن جلول إن هذه الضريبة أي الدنوش صنفان واحد في الربيع والآخر في الخريف، والدنوش العادي أي ذلك الذي يكون فيه الدفع معهودا لخليفة الباي يضم الضرائب المالية والعينية وهو يتكون كما يلي :مائة ريال بسيطة "أي حوالي 250 ألف فرنك فرنسي سنة 1830 " وخمسون فرسا وخمسون بغلا جيدا وثلاثمائة بقرة وثلاثة آلاف من الغنم، وعشرون قربة من الزبدة المذابة وعشرين كيلا من المْحَوّرْ " الكسكسي " وعشرون كيلا من الفريك، وعشرون قفة من التمر الجيد وخمسون قفة من الزيتون الجيد وجلود الأسود والفهود وبرانس الجريد وحياك للتغطية وسبحات من العنبر والمرجان ومختلف أنواع العطور والطرابيش الحمراء المصنوعة في تونس.

ويقول بن جلول أن هذه الضرائب لا تذهب كلها لخزانة الدولة، فالباشا وكبار الموظفين يأخذون نصيبا هاما منها، فيأخذ الباشا عشرة آلاف ريال بسيطة ومائتا محبوب من الذهب وخمسون فرسا وعشرة بغال وخمسون بقرة ومائتان من الخراف وقربتين من الزبدة المذابة وكيلتين من المْحَور وكيلتين من الفريك وخمسة وعشرون قفة من التمر وخمس قفف من الزيتون، وأربع برانس ، وأربعة حياك ومسبحتين من العنبر، ومسبحتين من المرجان ونصيب من عطور الورد والياسمين وجلدين من جلود الأسود وجلدين من جلود النمور وأربع دزينات من الطرابيش الحمراء.

وأما الخزناجي والباش آغا ووكيل حرج باب الجزيرة فيأخذ كل منهم مائة ريال بسيطة ومائة محبوب وفرسين وبغلين وعشرة أبقار وخمسون غنما وقربة من الزبدة المذابة وكيلة من المحور وكيلة من الفريك ودزينة من الطرابيش الحمراء التونسية وبرنسين وحايك ومسبحة من العنبر وأخرى من المرجان وعطور وخمسة وعشرون قفة من التمر وبضعة قفف من الزيتون وجلد أسد وجلد نمر.

وأما خوجة الخيل ووكيل بيت المالجي ووكيل الباي [ممثل الباي في قصر الداي] فيلأخذ كل واحد منهم ألف ريال بسيطة وخمسون محبوبا وفرسا واحدا وبغلا واحدا وقربة من الزبدة المذابة وكيلة من المحور ونصف كيلة من الفريك وخمس قفف من التمر ونصيب من الزيتون وبرنسا وحايكا وست طرابيش وسبحة من العنبر وسبحة من المرجان وبعض العطور.[40]

وتوهب هذه الهدايا من قبل الخليفة شخصيا بدءا من الباشا ثم بقية الموظفين الكبار الذين ينتهزون هذه المناسبة لتناول الضيفة الفاخرة التي تعد لمثل هذه المناسبة وعدا كل الهذايا السابقة فهناك هذايا أخرى أقل قيمة من الأولى تسلم لبعض الموظفين الصغار كخوجة الترك وخوجة العرب ووكلاء حرج دارل السلطان والخزندار ومماليك القصر والصبايحية والترجمان وآغا القل وآغا دار سركاجي والمزوار وقايد الزبل .

ومن جهته فالباشا لا يترك خليفة الباي يعود خالي الوفاض فهو يقوم بإهدائه قفطان تجديد التولية ولباس كامل وبندقية وحصان ويطغان كما يقوم كبار الموظفين بإهداء الباي عبر خليفته بعضهم بنادق والبعض أشياء ذات قيمة كل حسب مكانته ودرجته.[41]

ويواصل بن جلول قوله إنه في اليوم الثامن لوصول الخليفة للجزائر فإنه يغادر عائدا لقسنطينة، وعند اقترابه منها فإن الباي وكامل حاشيته يذهبون لاستقباله، ولما يصل هؤلاء ينزل الخليفة من حصانه لتحية الباي مسلما إياه برنوس الشرف والهدايا الأخرى التي أحضرها ثم يدخل الموكب إلى المدينة مع هتافات الناس وصوت قرع الطبول ودوي المدافع ، وفي دار الباي تجدد مشاهد التولية ويقوم الباي بنزع برنوسه ويهبه للخليفة الذي يجلب إليه في أبهة كبيرة .

وإضافة إلى دنوش الربيع فإن الخليفة يقود معه القوات التي ترافقه من الجزائر، وقوامها ستون خيمة،والتي تعوض نوبة السنة الماضية، وتعين في العمليات العسكرية واستخلاص الضرائب، ولما يقوم الباي بقيادة رحلة الدنوش في ربيع ثالث سنة فإن الضرائب تتضاعف قيمتها نتيجة غلاء الهدايا التي يتوجب عليه اصطحابها معه.

ويضيف بن جلول أن موكب الدنوش حين يصل إلى ذراع لحمر قرب بني عباس فإنه يتوجب على الأتراك تقديم ضريبة لزعماء أولاد مقران لضمان عبور موكب الدنوش سالما عبر البيبان وتتمثل الضريبة في بعض الأبقار والأغنام وهذا يدل على استقلال بعض القبائل عن الأتراك في العهد العثماني.[42]

ويتبين لنا من هذه النقول أن المؤرخ بن جلول تميز في كتابته بالدقة المتناهية في تقييده للأمور الإدارية والاقتصادية.

و جاء في وثيقة كانت ضمن أوراق عائلة القاضي مصطفى بن جلول ما يلي :" الحمد لله ذكر لنا جذر الولاة ومنبع الفضل والخيرات سيدنا صالح باي أبقى الله تعالى وجوده أن النصراني الذي جاء مع جماعة منهم لأجل بناء القنطرة المعروفة قديما بالمشبكة عند حي باب القنطرة ، أخبره أن تاريخ بنيان القنطرة في السابق كان كما هو مكتوب بالسرياني بعد... سيدنا عيسى... بثلاثمائة وخمسة وثلاثين سنة في أوائل جمادى الثانية 1206 هـ/ 1792 م ".[43]

واعتبر الشيخ مصطفى بن جلول في مخطوطه إن الاحتلال الفرنسي للجزائر قضاء وقدر فنجده يقول : "بمشيئة الله تعالى استولى الفرنسيس على الجزائر" كما اعتبر أن مسألة نصب الفرنسيين لمدافع خشبية فوق منشآتهم بالقالة هو ما عكّر- حسبه - صفو العلاقات مع الإيالة فقد كان الفرنسيون" أقاموا بالقالة دارا واسعة لتكون مسكنا لتجارهم الذين يتاجرون مع الأهالي في تجارة الجلود والصوف والشمع والسلع الأخرى، والحال أن سكان المناطق المجاورة لم يتوقفوا عن إقلاق هؤلاء الأوروبيين بسرقتهم والقدوم كل ليلة للطواف حول بنايتهم وقد جعلت هذه الجولات الليلية الفرنسيين يأخذون في الليل كما في النهار إجراءات الاحتراس وحتى يبعدوا ويمنعوا عدوان الأشرار فقد صنعوا مدفعين من الخشب لهما هيئة المدافع الحقيقية وقاموا بوضعها في نوافذ بنايتهم".[44]

ويذكر أن العلاقات مع فرنسا انقطعت أربع سنوات وخلال هذه المدة فإن العساكر كانت تجول دوما على الساحل لمنع السفن الجزائرية من ركوب البحر وخلال هذه المدة اعلم الباشا بطريق مؤكدة أن الفرنسيين يستعدون للهجوم عليه فقام حينذاك باستدعاء البايات للتعجيل بمساعدته بقواتهم وجمع الحاج أحمد باي قوات القبائل مثل: الحنانشة والحراكته وأولاد عبد النور والتلاغمة وعامر والصحاري والحشم الذين يقودهم أولاد مقران، وكل الدايرة والزمول والزناتية والصراوية

وأولاد بوسلاح الذين يقودهم الآغا بن الحملاوي، وزودت كل هذه القبائل بثلاثة آلاف وبعض الفرسان، دون حساب المترجلين الذين لحقوا بالمحلة خلال سيرها نحو الجزائر وجلب الباي معه فرقة من الجنود الأتراك لحراسة موكب ضريبة الدنوش التي تعوّد على دفعها لخزينة الباشا.[45]

ويمضي بن جلول في سرد تفاصيل في غاية الأهمية عن الحوادث التي سبقت الاحتلال كما يذكر أعمال المقاومة المنظمة ضد النزول الفرنسي، ومشاركة عدد من القبائل في هذا المجال مثل قبائل فليسة وبني جناد وقبائل جرجرة، وجهود الحاج أحمد باي في المقاومة، لكننا نجده يثني على الفرنسيين فيقول :"ولو استخدم الفرنسيون الذين كانوا بقربنا سلاحهم فإنهم سيقدرون في تلك اللحظة أن يهلكوا كل الفارين منا، و لكن على العكس، فقد توقفوا ليتركوا لنا الوقت لنبتعد، و كانت لدي فرس جعلها صخب البارود ومنظر المعركة نفورة، ويضاف إلى كل هذا كبر سني الذي انتزع مني كل نشاط، وقد تكبدت مشقة كبيرة للابتعاد عن ساحة المعركة وكانت تفصلني بضعة خطوات عن الفرنسيين ورغم هذا فإنهم لم يسببوا لي أي أذى، وقد أثبت لنا هذا العمل الكريم أن الفرنسيين لهم قلب شريف وإنهم لا يقومون بالحرب لمجرد القتل."[46]

ثم يذكر إن وفدا من الأعيان دعوا الداي حسين لعقد الصلح مع الفرنسيين ، ويقدم مثالا عن عدم مبالاة الداي نقله له أحد شهود العيان فيقول :" عندما دخلوا لدار الباشا وجدوه يتحدث مع ساعاتي كان يحرك رقاصات الساعة، وساعات موسيقية، وقد قال له الباشا: ضع هذا الرقاص في هذا المكان، وضع ذاك في مكان آخر.

وظل رجال الوفد الذين كانوا منشغلين بعمق بجسامة الوضع حائرين أمام عدم اكتراث الباشا الذي كان يمضي وقته في تفاهات في وقت عصيب وخرجوا مذهولين دون أن يعرضوا سبب مسعاهم، لكنهم قالوا أن قدرة الباشوات قد اضمحلت وإنهم صاروا منذ ذلك الحين غير قادرين على حكم البلاد"[47].

ثم يتتبع بن جلول مسار الأحداث وانتصار الفرنسيين وتراجع المقاومة ووعود الفرنسيين باحترام شخصية وثروة الجزائريين ومنحهم الأمان لداي الجزائر الذي رخصوا له أن يلجأ إلى المشرق مع عائلته وثروته،وتراجع الحاج أحمد باي إلى قسنطينة وصراعه مع الاتراك من أجل توطيد سلطته في الإقليم[48].

وهكذا فإن مخطوط بن جلول قد ضم إضافة إلى معلومات عن قسنطينة وإقليمها معلومات هامة عن الحملة الفرنسية على الجزائر، وكان صاحبه شاهد عيان على هذه الحوادث.

4. الخلاصة :

تعدّ دراسة شخصيتي محمد البابوري ومصطفى بن جلول من الدراسات الهامة التي تسلط الضوء على إسهامات هذين المؤرخين في تاريخ مدينة قسنطينة خلال القرن التاسع عشر. من خلال استعراض حياة محمد البابوري، يتضح لنا أنه كان شخصية متعددة الأبعاد؛ فقد جمع بين الثقافة والتعليم والمهارات الإدارية، مما جعله يلعب دوراً مهماً في توثيق التاريخ المحلي رغم الانتقادات الموجهة لأسلوبه. وقد تجلى ذلك في المخطوطات التي تركها والتي ما زالت تمثل مرجعًا ذا قيمة تاريخية،

رغم ضياع بعض جوانب عمله. من ناحية أخرى، فإن مصطفى بن جلول يظهر كمؤرخ وقاضٍ حنفي متخصص في السجلّات الإدارية، وقد قدّم إسهامات بارزة في توثيق الحياة اليومية للإدارة العثمانية في قسنطينة. ما يميز أعماله هو دقته في تسجيل الضرائب والإجراءات الإدارية التي كانت سائدة في فترة حكم العثمانيين، مما يعزز من فهْمنا للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية في تلك الحقبة.

إن هذه الدراسة لا تقتصر على الوقوف عند سيرة حياة هذين المؤرخين فقط، بل تقدم أيضًا تحليلاً عميقًا لإسهاماتهما في فهم طبيعة الحكم العثماني وتفاعله مع السكان المحليين في مدينة قسنطينة. إن مراجعة الأعمال التاريخية لهذين الشخصين توفر لنا مادة ثرية لفهم الأساليب الإدارية والثقافية التي اعتمدها العثمانيون في إدارة المدينة، فضلاً عن تقديم رؤية دقيقة عن مرحلة ما قبل الاستعمار الفرنسي. ومن خلال تحليل هذه الأعمال، تتضح قيمة هذه السجلات في تعزيز الوعي التاريخي للمجتمع المحلي والحفاظ على الذاكرة الثقافية التي تشكل أساسًا لفهم التحولات الكبرى التي شهدتها المنطقة في فترات لاحقة. إن فهم هذه الحقبة، رغم تعقيداتها، يعزز من القدرة على فهم تأثيرات الاستعمار الفرنسي وكيفية تأثيره على المجتمعات المحلية في شمال إفريقيا.

5. الهوامش

[1]- توحي هذه النسبة بأن أصل عائلته من جبال البابور بين سطيف وجيجل وإن كان هو نفسه من مواليد مدينة قسنطينة حسبما ذكر فايسات.

[2] - Vayssettes :Histoire des derniers beys de Constantine, in Revue africaine 1858 p 109.

[3] - أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 7، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2000 ، ص 352.

[4] -L.J. Bresnier : Chrestomathie arabe, Alger, Bastide libraire éditeur 1867 p 48.

[5]- هو مخطوط : " الدرة الثمينة في التعريف بمشايخنا أهل قسنطينة وهو مخطوط مفقود اعتمد عليه (Cherbonneau) ولعله ضاع معه، أنظر :

- A .Cherbonneau : Biographie du vénérable cheikh Ben El Habib taleb de la medersa de Sidil-Akhdar , nouvelles annales des voyages,tome 4 , 1850, p 33.

[6] - Cherbonneau : Exercices pour la lecture des manuscrits arabes, librairie Hachette, Paris 1853 , p 41.

[7] -Vayssettes : Histoire des derniers beys de Constantine, in revue africaine 1858 p109.

[8] -Vayssettes : Histoire de Constantine sous la domination turque,de 1517 à 1837, Paris, édBouchéne 2002, p 17.

[9]- Vayssettes : Histoire des derniers beys de Constantine,p109.

[10]- Berbrugger : Expédition d'Oreilly en 1775, partie légendaire, revue africaine1865, p304.

[11]-Cherbonneau : Gouvernement d'Ahmed Chaouche surnommée le Kabyle, in revue orientale et algérienne t 3, décembre 1852, Paris, Guide et Baudry libraires-éditeurs, 1852, pp 397-402.

[12]- Berbrugger : Opcit , p 304 – 305.

[13] - Vayssettes : Histoire de Constantine, p 157-158.

[14] - Vayssettes : Hanina ; la vierge de Constantine , Alger ,Juillet saint-lager libraire 1873, p1.

[15] - Vayssettes : Histoire de Constantine,p 213.

[16] - Feraud : La Prise d'Alger raconté par un algérien, in R.S.A.C 1865, p 68.

[17] - نور الدين عبد القادر: صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي،نشر كلية الآداب الجزائرية مطبعة البعث 1965 ص214.

[18]- Cherbonneau : Inscription arabe de la province de Constantine , in annuaire de Constantine 1855 – 1856 , p 103.

[19] - Feraud : Opcit, p 6 .7

[20]-الحسين الورثلاني :نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار ، ط 2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1974 ، ص 692.

[21]- كان الشيخ شعبان مهتما بالنحو والألغاز ولذلك كلف سالم بن محمد من أولاد عيسى بن لكحل سنة 1146 هـ/ 1734 م بنسخ كتابين لبركات بن باديس الأول في تراجم النحاة عنوانه" التنقيح في التعريف ببعض أحوال رجال طالعة التصريح على التوضيح" وهو كتاب ترجم فيه تراجم مختصرة لعلماء النحو الذين يتعرض لهم أثناء تدريسه لهذه المادة بقسنطينة ومنهم حوالي 28 ترجمة ، والكتاب الثاني في الألغاز بعنوان " نزع الجلباب في جمع ما خفي في الظاهر من الجواب" ويقع في 21 صفحة ، أنظر : سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1988، ص 44.

[22]- لم يقدم فيرو الذي أورد هذه المعلومة أي تاريخ سواء للميلاد أو للوفاة.

[23]- Feraud : Opcit,p, 68.

[24] - L.J. Bresnier Opcit , p 52.

[25]- كما جاء في رسالة قرض بها كتاب لمصطفى باش تارزي سنذكره فيما بعد.

[26]- كما ذكر هو للمستشرق الفرنسي (Cherbonneau) ، أنظر :

Cherbonneau : Inscription arabe de la province de Constantine, in R.S.A.C -1856-1857 ,121

[27] - Feraud : Opcit, p 68.

[28]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 5، ص 123.

[29] - Cherbonneau : Inscription arabe, p 121.

[30] - Feraud : Opcit , p 68

[31]- محمد المهدي بن علي شغيب :أم الحواضر في الماضي والحاضر أو تاريخ مدينة قسنطينة ، مطبعة البعث ، قسنطينة، 1980 ، ص 331.

[32]- Megnaoua,C : Le registre du Caid el Bled de Constantine ,in recueil de Constantine , 1929 p 27.

[33]- جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر 1830-1914 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1993 ، ص 101.

[34]- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، قسم 1، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1992، ص 391.

[35] - Feraud : Opcit, p 68 .

[36]- سليمان الصيد :نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار ، ط1، المطبعة الجزائرية للمجلات والجرائد ، بوزريعة 1994 ، ص 99-100.

[37] - Vayssettes : Histoire de Constantine,p20.

[38]- تذكر المصادر أن العائلة قد احتكر أفرادها منصب الباش كاتب لدى بايات قسنطينة.

[39] - Cherbonneau :Sur une inscription arabe trouvée à Constantine, in annuaire de Constantine 1855 p 103-106

[40] - Vayssettes : Histoire de Constantine,Opcit,p31

9/30/2024

[41] -Ibid,p32.

[42] - Ibid,p33.

[43]- ناصر الدين سعيدوني :ورقات جزائرية ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 ، بيروت: 2000 ، ص 294.

[44] - Feraud : Opcit, p 70.

[45] - Ibid, p 71-72

[46] - Feraud: Opcit, p 73 -74.

[47] - Ibid,p 74.

[48] - Ibid, p 75.